

رواية "وا إسلاماه" للكاتب الكبير علي أحمد باكثير (دراسة نقدية)

محمد علي غوري

في بداية هذا البحث أود أن أقدم ملخصا لهذه الرواية التاريخية التي وقعت أحداثها الرئيسية في مصر وما حولها، والتي يطل منها القارئ على المجتمع الإسلامي إبان غزو التتار للعالم الإسلامي في أهم بلاده من نهر السند إلى نهر النيل.
ملخص الرواية:

تبدأ أحداث الرواية بنقاش طويل بين جلال الدين بن خوارزم شاه سلطان الدولة الخوارزمية وصهره ممدود حول بداية الهجوم التتري، وأسبابه وكيف أن السلطان خوارزم شاه كان غنيا عن التحرش بالقبائل التترية المجاورة لسلطنته، وأخذا يتذاكران معا ما وقع لأهلها من النساء على يد التتار، ولم يفتهما أن يشيرا إلى التفرق والتشتت اللذين منعا المسلمين في الغرب من نجدة إخوانهم

في الشرق، واتفقا على الاستعداد لمواجهة الأعداء المتربصين
بالبلاد.

تظهر براعة المؤلف في وصف الشخصيات وخاصة شخصية
السلطان جلال الدين، ووصف حياة القصور من خلال هذا الحوار.
ثم يبشر ممدود زوج أخت جلال الدين بمولود ذكر يسميه
محمودا، بينما تلد زوجة السلطان أنثى، فيغضب السلطان غضباً
شديداً ولكنه لا يمس محمودا بسوء.

تدور رحى الحرب بين المسلمين بقيادة جلال الدين والتتار
بقيادة جنكيز خان، وتكون سجالا، وفي إحدى المعارك الكبيرة
يكاد جيش جلال الدين يفنى عن بكرة أبيه، فيضطر إلى إغراق أهل
بيته من النساء - خوفا من العار - وينجو بمن معه ليؤسس مملكة
صغيرة في لهاور (وهي لاهور حاليا) وينطلق منها مرة أخرى لمناوشة
التتار، وخلال تلك المناوشات نجد السلطان حريصاً على تعليم ابن
أخته محمود الفروسية وفن القتال، وتشاء الأقدار أن يختفي محمود
وجهاد وهما بقية أهل السلطان وأحب الناس إلى قلبه، ويفترقا عنه
للمرة الأولى ويشاء الله أن تكون الأخيرة أيضاً، حيث يجن السلطان
بعد أن ييأس من العثور عليهما، ويدمن الخمر ويفقد وعيه الأمر الذي
يؤدي إلى ضعف جيشه وتشتته، وفي نهاية هذه المرحلة يُقتل
السلطان جلال الدين على يد الكردي الذي خطف ابنه وباعهما في
سوق النخاسة.

هناك أدوار أخرى مهمة مثل دور الشيخ سلامة الهندي، الخادم المخلص، والمحافظ الأمين، الذي يجعل الهدف من حياته خدمة الأميرين الصغيرين، ولكنه يضطر إلى الافتراق عنهما عندما يباعان في سوق النخاسة، ويلفظ أنفاسه الأخيرة غماً وحرناً عليهما. ثم تبدأ قصة قطز وجلنار وهما محمود وجهاد بعد أن يصبحا مملوكين، يشتريهما غانم الدمشقي، الذي يحسن إليهما ويعاملهما كما لو كانا ابنه، ولكن هذا الحب يغيظ ابنه الحقيقي المعروف بسوء خلقه، فيكيد لهما - بعد وفاة أبيه - ببيع جلنار لرجل من مصر وإلحاق الأذى بقطز، الذي يستطيع أن يتخلص من ابن الدمشقي الفاسد وينتقل إلى مُلك ابن الزعيم صاحب الشيخ العز بن عبدالسلام، ومن هنا تتوثق صلته بالأخير المؤازر للملك الصالح أيوب - حاكم مصر - ضد علوه الملك الصالح إسماعيل - حاكم دمشق -، وينتهي الخلاف بين هذين الملكين بمعركة كبيرة يكون لقطز فيها دور بارز، بل يمكننا أن نقول فاصل على حدّ تعبير المؤلف، وتنتهي المعركة بانتصار الملك الصالح أيوب.

ثم ينتقل كل من الشيخ ابن عبدالسلام وقطرز إلى مصر التي تنتظرهما، أما الشيخ فليتولى القضاء وأما قطرز فللعمل في خدمة القائد عز الدين أيك، وفي مصر يلتقي قطرز بصديقه القديم الظاهر بيبرس وكان قد تعرف عليه في سوق النخاسة عندما كانا صغيرين، كما يلتقي بحبيبه جلنار التي ظلت بعيدة عنه ردحا من الزمن.

تبرز خلال القصة مواقف عظيمة للشيخ ابن عبدالسلام الذي لا يخشى في الله لومة لائم، حتى لو كان الثمن هو اعتزاله القضاء.

وتجري الأحداث وتتوالي سريعا لتبعد الحبيبة عن حبيبها مرة أخرى، حين ترحل إلى دمشق ضمن نساء القصر برفقة الملك الصالح أيوب، الذي يذهب هناك للاستشفاء، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى مصر محمولا لمواجهة هجمات الفرنج الصليبيين، وهذه المواجهة لا تطول إذ سرعان ما يحقق المسلمون انتصارات هائلة على أعدائهم ويتمكنون من طردهم من مصر، ولكن وقبل أن تضع الحرب أوزارها يموت الملك فتُخفي زوجته شجرة الدر أمره حتى لا يضعف المسلمون أمام أعدائهم.

ثم يتولى تواران شاه ابن الملك الصالح أيوب ملك مصر من بعده، ولكن سيرته لم ترض الأمراء، فقد كان سيء الخلق مدمنا للشراب، لاهيا عن أمور الدولة وشؤونها، فينتهي أمره بالقتل، وتتولى شجرة الدر مقاليد الحكم في مصر، الأمر الذي لم يعجب الخليفة العباسي في بغداد، فنهاها تعزل نفسها وتولى مكانها عز الدين أيك - الذي يلقب بالملك المعز، وهو صاحب بطلنا قطز- ثم تتزوج الملك الذي عينته بنفسها، ويشتركان مع المملوك قطز في قتل فارس الدين أقطاي - منافس الملك المعز وصاحب الظاهر بيبرس - ويعين قطز نائبا للسلطان، وهكذا يرتقي قطز في المناصب لتحقيق البشارة التي بشره النبي صلى الله عليه وسلم بها. وبعد فترة تسوء العلاقة بين

شجرة الدر والملك المعز بسبب طبيعة شجرة الدر الطامعة في الحكم، وينتهي الخلاف بينهما بمقتل الملك بتدبير زوجته الطموحة، ولكنها لا تعيش بعده طويلاً إذ تقتل ضرباً بالقباقيب وتلقى من فوق القصر، ويصفو الملك لنائب السلطان، فيصبح قطز الملك المظفر.

تعود دورة الحياة مرة أخرى لتضع محموداً أو قطزاً أو الملك المظفر أمام أعدائه القدامى ألا وهم التتار، وتدور بينهما المعركة الأخيرة في حياة الأميرين محمود وجهاد أو المملوكين قطز وجلنار أو السلطان المظفر وزوجته السلطانة، وهي معركة عين جالوت، لقد جمع الله بطل هذه الرواية بأعدائه وأعداء دينه لأمر كان مفعولاً، وتفدي السلطانة زوجها الملك بحياتها خلال المعركة وتسقط شهيدة، في ميدان الحرب.

تسفر المعركة عن انتصار المسلمين على التتار وطردهم نهائياً عن بلاد المسلمين، ولكن وقبل أن يعود الملك المظفر إلى مصر، يقتله صديقه القديم الظاهر بيبرس، وهو الذي ينوي الملك المظفر أن يُسَلِّمَهُ مقاليد حكم مصر عند عودته، ولكنه - وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة - لا يعدل عمّا نوى عليه، ويعين الظاهر بيبرس سلطاناً على مصر، ويوصيه بالعمل لصالح الإسلام والمسلمين.

وفي نهاية الرواية تقع في يد الملك الظاهر رسالة يكتشف من خلالها أن أصل الملك المظفر ليس قطزاً المملوك بل محمود بن ممدود ابن أخت جلال الدين بن خوارزم شاه.

ملاحظات موضوعية عامة:

نحن أمام رائعة من روائع الأدب، لا أقول الإسلامي فحسب بل الأدب العالمي، ولكن من منطلقات إسلامية واضحة المعالم، أحداث وقعت فعلا، وضعها الروائي الكبير علي أحمد باكثير في قالب قصصي جميل وشيق، وقد حبكها بحكمة جيدة في نسيج متماسك، وأدرج تطور الأحداث فيها بهدوء، وخاصة فيما يتعلق بتكوين الشخصيات، لا سيما الشخصية الرئيسية وهي شخصية محمود، وتربية خاله له وتعهده وتوجيهه وتعليمه الفروسية. كما يسجل تطور العلاقات بين شخصيات الرواية، وخاصة العلاقة بين محمود وجهاد من طفلين يلعبان إلى حبيين لا يطيقان الفراق.

ومما يدل على ترابط الرواية وتشابك نسيجها تشابهات بين ما حدث لجلال الدين في بداية القصة وما حدث لمحمود في نهايتها، من ذلك أن جلال الدين كان مولعا بالصيد، إذ كان كثيراً ما ينفرد عن جيشه ويجري خلف أرنب أو غزال يلوح له أثناء السير، وكانت هذه العادة سببا في فقدته لمحمود وجهاد عندما كانا صغيرين، وقد ورث محمود هذه العادة عن خاله جلال الدين، حيث بعد أن أصبح ملكا، وبينما هو عائد منتصرا من معركة عين جالوت إذ لاح له أرنب، فجرى خلفه مبتعداً عن الجيش ولحقه الظاهر بيبرس - الذي أساء الظن بالملك من أنه ينوي قتله بعد عودته إلى مصر مع أن نية الملك كانت تتجه إلى عكس ذلك فقد كان ينوي أن يحلّه مكانه - مع أعوانه مستغلين فرصة تفرده عن الجيش ليقتلوه.

وهناك تشابه آخر، وذلك عندما ضرب الكردي السلطان جلال الدين بحربة، لم يبد الأخير أية مقاومة لأن حياته كانت مليعة بالآلام وقلبه كان يتفطر حزنا على فراق ابنه، وكذلك عندما كان الظاهر بيبرس وأعدائه يجهزون على الملك المظفر في نهاية القصة لم يبد الملك أية مقاومة لأن الحزن كان قد ملأ جوانبه لفقده زوجته وشريكة حياته.

تأثر الكاتب بمبادئ الإسلام ومحاولته بثها في ثنايا الرواية:

نلاحظ أن الكاتب يحاول أن يدعو إلى الإسلام عن طريق إبراز محاسنه وفضائله، وفضائل ما يدعو إليه من مبادئ مثل العدالة الاجتماعية، وأهمية الحاكم العادل، وذلك حين يتكلم في الفصل الرابع من الرواية عن وقوف أهالي البلاد الإسلامية مع جلال الدين وثورته على حكامهم الظالمين الذين عينهم التتار. كما نجد إشارات إلى مبادئ الإسلام الأخرى التي أقرها القرآن وأكدتها السنة مثل الإيمان بالقدر، وعن قدرة الله عزوجل، وأنه لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير، ويظهر ذلك جليا عند وداع قطز لجلنار بعد أن باعها ابن غانم الدمشقي الفاسد بالقوة ودون رضاها لرجل من مصر، وكيف أن كلمة حق عند سلطان جائر من أفضل الجهاد وذلك عند حديثه عن مواقف الشيخ العز بن عبد السلام.

ونجد في الرواية حديثا عن مشاعر الحب ولواعجه عند قطز وجلنار ولكن ببراءة وبأسلوب راق سام، لا يثير فينا الغرائز، بل يسمو بعواطفنا وغرائزنا، ويعمق فينا نبل المشاعر لأنها فطرية في الإنسان

وهذا الأمر لا يتنافى مع كون الرواية من الأدب الإسلامي لأنه لم يسف ولم يفحش فيها^(١).

أسلوب الكاتب:

يتميز أسلوب الكاتب بالجمال والدقة في الوصف، يتناسب مع طبيعة الحال الموصوف، كما يتميز بالبساطة وعدم التعقيد - الأمر الذي حدا بوزارات التعليم في كثير من البلاد العربية إلى أن تقرره على طلاب المرحلة الثانوية فيها، ولما تشتمل عليه من معاني تربوية سامية مستمدة من أصول ديننا الحنيف.

ومن أهم ما يميز أسلوب الكاتب كثرة الاقتباسات من القرآن الكريم بالدرجة الأولى ومن الحديث الشريف بالدرجة الثانية، وأخيراً من الشعر العربي.

اقتباسه من القرآن الكريم :

- نذكر فيما يلي طرفاً مما اقتبسه من القرآن الكريم :
- "سيكون لك من معونة الله وتوفيقه، إذا أخلصت الجهاد في سبيله، ما يشرح لك صدرك، ويضع عنك وزرك الذي أنقض ظهرك، ويرفع لك بهزيمة التتار عند الله وعند الناس ذكرك".
 - "وحيث بشر جلال الدين بجارية: "فقد تغير جلال الدين لما بشر بالأنثى وظل وجهه مسوداً وهو كظيم".
 - "فوقفوا في وجه العدو كأنهم البنيان المرصوص".
 - "ليشهدوا منافع لهم ويبيعوا ويبتاعوا".

- "ما يكون لي أن أعتدي على ابن مولاي الذي أكرم مشواي وأحسن إليّ".
- "وأقبسه من أنواره ونفث فيه من روحه".
- "فلما جاءت مراكب الفرنجة خرجت لها من مكنها فنازلتها وأخذتها أخذا وبيلا".
- "وما أن انقطع المدد من دمياط عن العدو حتى أذاقهم الله لباس الجوع والخوف".
- "فضاقت بهم أنفسهم وبلغت القلوب الحناجر".
- "ثم خربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين".
- "وأظلمت الدنيا في عينيه وضاقت عليه الأرض بما رحبت".
- "طغى الحزن الجبار على تلك النفس القوية فوهنت ... وعلى ذلك الرأي الجميع، فانتفض غزله من بعد قوة أنكاثا".
- "فالله أعلم حيث يجعل ولاية المسلمين".
- ومن أجمل ما اقتبسه من القرآن الكريم: "والتجأ الملك الحاسر إلى تلّ المنية - منية عبد الله - قال: سأوي إلى جبل يعصمني من الموت. قال المسلمون: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، وتم بينه وبينهم الأمان فكان من المعتقلين. وقيل يا أرض القتال ابلعي أشلاءك، وياسماء الموت أقلعي وغيض الدم، وقضى الأمر واستوت سفينة الإسلام على جودي النصر، وقيل بعداً للقوم الظالمين.
- اقتباسه من الحديث الشريف:
- "لقد فرجت كربى، فرّج الله كربك يوم القيامة".

- "فرقد اثنان، الحب ثالثهما" مقتبس من قول المصطفى
صلى الله عليه وسلم: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما".
- "ما رأيك في الأمير ييبرس؟ قال أقطاي: ما المسؤول عنه
بأعلم من السائل".

اقتباسه من الشعر العربي:

- "ولكن الواشي درى بأمر الحبيبين فما قرت بلابله".
- "ولبت دهرًا يكتفي من حبيته بالنظرة العجلى وبالأسبوع
تنقضي أوائله وأواخره لا يراها إلا مرة أو مرتين.
والفقرتان مقتبستان مما قاله جميل بثينة:

وإني لأرضى من بثينة بالذي

لو أبصره الواشي لقرت بلابله

بلا وبالأستطيع وبالمنى

وبالأمل المرجو قد خاب آمله

وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى

أواخره لا نلتقى وأوائله (٢)

إن هذه الاقتباسات الكثيرة وخاصة من القرآن الكريم لتعد
دليلاً واضحاً على تأثيره العميق به، كما نستشف تأثيره بأصول الدين
الحنيف من تعليقاته المقتضبة بين الفينة والأخرى، كما نراه يث من
خلال الرواية بعض الآراء والحكم والمواعظ.

أسلوبه في الوصف:

إن أسلوب الكاتب في وصفه للأشياء وللمشاعر يتميز بالدقة، وخاصة مشاعر الحب والعطف والشفقة، وذلك عندما يصف ما دار بين السلطان جلال الدين وابنته الصغيرة جهاد حين جاءت إليه باكية. ووصفه للمشاعر حين انقلب الموقف من فرح بولادة غلام في بيت أخت السلطان جلال الدين إلى حزن بسبب تنبؤ المنجم من أنه سيولد في أهل بيته غلام سيكون له شأن، وكان السلطان يتمنى أن يكون هذا الغلام ابنه وليس ابن أخته.

وكذلك وصفه المؤثر لموت السلطان جلال الدين وحيدا على يد كردي في جبل بعيداً عن ابنه الحبيبين.

ومن المواقف المؤثرة التي وصفها ذلك الموقف الذي ودع فيه الشيخ سلامة الطفيلين محمود وجهاد قبل وفاته، ثم موت الشيخ نفسه من الهم والحزن اللذين أحاطا به نتيجة افتراقه عنهما.

وأما وصفه للأشياء فيتميز بالدقة والروعة في التصوير، وخاصة للواقع في تلك الحقبة التاريخية البعيدة، من ذلك وصفه لسوق النخاسة والسرادق الكبيرة المقامة لبيع العبيد والإماء، وما يجري فيها، وكيف كان الدلال ينادي على البضاعة البشرية، وكيف كان يستعين بالشعراء في ذلك، ووصفه لحياة القصور وما يجري فيها من مؤامرات، ووصفه للمعارك والحروب والتكنيك العسكري، وخاصة عندما نقرأ عن المعركة التي دارت بين الملك الصالح إسماعيل والفرنج من ناحية وبين المصريين من ناحية أخرى، وخطة

قطر التي كان لها دور كبير في رجحان كفة المصريين وإلى جانبهم الشاميين.

ووصفه لهذه الدنيا وحقارتها وغرور متاعها وكذب أمانيتها ولؤم الإنسان فيها، وحرصه على باطلها كل ذلك على لسان أبطال القصة، ويتعجب من جهل الإنسان وعدم اتعاضه بالسابقين. وميزته في وصف الأشياء أنه لا يطيل بل يقتصد ويولي اهتمامه لموضوع القصة وتسلسل الأحداث.

كما يتميز أسلوبه بكثرة المترادفات المجلية للمعاني، والسجع الغير متكلف، والطباق والمقابلة وما إلى ذلك. لقد عرض الكاتب مرحلة من مراحل تاريخنا المجيد في ثوب قصصي جميل، وطوى الأحداث العظام في صفحات قصة "وا إسلاماه"، إنها بحق ملحمة إسلامية، إن صح التعبير.

المآخذ:

إذا كان ثمة نقد يمكن أن يوجه إلى هذه الرواية العظيمة، فأستطيع أن أقول: ربما لم يكن من المناسب أن يتحدث سلطان المسلمين جلال الدين مع صهره ممدود عن قضايا الأمة الكبرى، وعن الخط المحدق بها وعن الجهاد - وهو ذروة سنام الدين - وهما يلعبان الشطرنج، فمثل هذه الأمور لا تتناسب مع شخصية من سيبدأ الجهاد من غده وشخصية من يعيش في جوّ المعارك، والمسؤول الأول عن حياة المسلمين فكما نعلم أنه كلما كبر المسؤول عظمت مسؤوليته. وأيضا مما لا يتناسب مع هذه الشخصية البذخ

والترف اللذان يظهران جليا حين يطوي ممدود الشطرنج، ويضعه في صندوق ذهبي مرصع بالجواهر، ثم يضعه في صندوق آخر من الأبنوس المطعم بالعاج، والحديث عن السلم المرمرى الذي انحدر منه السلطان جلال الدين.

وأهم نقد يمكن أن يوجه إلى الكاتب أنه مرّ على موقف كبير، يمكن أن يزلزل النفوس ويترك فيها آثارا عميقة مثل موقف قتل جلال الدين نساءه بعد هزيمته أمام التتار، وإغراقهن أحياء، وذلك عند إحساسه بالخطر عليهن . إن مثل هذا الموقف الجلل كان يحتاج إلى وقفة أطول، وتفصيل أكثر، وتبرير أقوى، وتأثر من جانب جلال الدين أعمق.

وموقف جنود جلال الدين واستسلامهم للأمواج عند انقطاع صوت جلال الدين وقد كانوا من قبل يغالبونها، لا يتناسب مع الطبيعة البشرية وواقعها، فحب البقاء كامن في نفس كل إنسان، فلا يعقل أن يستسلم الجنود للأمواج العاتية تسلب منهم الحياة لموت قائدهم جلال الدين مهما بلغ من حبه وإخلاصهم له.

إن رواية "وا إسلاماه" العظيمة ملحمة إسلامية بحق، سجلت وقائع تاريخية ثابتة بأسلوب قصصي محبب إلى النفس، وكتبها الأستاذ علي أحمد باكثير بحق من كتاب الأدب الإسلامي الملتزم.

هوامش

- ١- "نظرية الأدب في ضوء الإسلام" د. عبدالحميد بوزوينة، دار البشير، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص ١٧٥، تحت عنوان "الأدب والأخلاق".
- و "مدخل إلى الأدب الإسلامي" د. نجيب الكيلاني، الدوحة، كتاب الأمة ١٩٨٧م، ص ١٠٧، وما بعدها، تحت عنوان "الأدب الإسلامي في المجتمع".
- ٢- "ديوان جميل" جمع وتحقيق وشرح د. حسين نصار، دار مصر للطباعة، مكتبة مصر، ص ١٦٨.

المراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- باكتير، أحمد علي: رواية "وا إسلاماه"، دار البيان، الكويت، ١٩٧٢م.
- ٣- بوزوينة، د. عبدالحميد: نظرية الأدب في ضوء الإسلام، دار البشير الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
- ٤- د. حسين نصار: ديوان جميل، دار مصر للطباعة، مكتبة مصر.
- ٥- د. شكري محمد عياد: مدخل إلى علم الأسلوب، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى ١٩٨٢م.
- ٦- الكيلاني، د. نجيب، مدخل إلى الأدب الإسلامي، الدوحة، كتاب الأمة ١٩٨٧م.

